قراءة في العلاقات الجزائرية الأوروبية من خلال القنصل شارل فيليب فاليير

الأستاذ بن حادة مصطفى، جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص:

تعتبر العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال العهد العثماني أهم المحطات التاريخية الدبلوماسية التي مرت بها الجزائر خلال فترة مزدهرة و متدبدبة مرت بها عبر تريخها. لقد كتب عن هذه العلاقات الكثير من الرحلات و القناصل الذين زاروا الجزائر مما أثار انتباهي هو ما دونه القنصل الفرنسي شارل فيليب فالبير خاصة و ان بدأت تتفوق نوعا ما عن الضفة الشمالية للبحر المتوسط بدأت تتفوق عن الضفة الجنوبية منه . ان ملاحظات القنصل الفرنسي الذي مثل بلاده في الجزائر في 1791-1796 في خلال مذكراته الجزائر في 1781 - L'Algerie en 1781- و الذي حققه لوسيان شايو Lucien Chaillou من خلال جمعه لوثائق خاصة بالقنصل الفرنسي و الذي اندهشت في المعلومات التي خلفها القنصل حيث تحدث عن العلاقات الجزائرية الاوروبية عامة من خلال الحرب و السلام بين الجزائر و هذه الدول حسب كل فترة تاريخية مرت بها خلال العهد العثماني حيث ذكر قوة الجزائر آنذاك فقد سعت هذه الدول الى عقد اتفاقيات و معاهدات سلام خشية من غضب الجزائر منها غفد سعت كل من انجلترا الدانمارك السويد جمهورية البندقية ....الى عقد معاهدات سلام حتى تتقرب اكثر فاكثر من الجزائر في المقابل من خلال مذكرات فيليب فاليير فان العلاقات الجزائرية الفرنسية شهدت تدبدبا خلال العهد العثماني فتارة يسودها السلام و التقارب و اخرى التنافس و الحرب نظرا للاختلاف حول مصالح كل دولة خاصة بعد الانتصارات التي حققتها فرنسا داخل اوروبا فأصبحت قوة اوروبية كبيرة و لابد ان تكون لها مكانة سيادية في البحر المتوسط . ان القنصل الفرنسي فاليير وصف كل ما جرى بين الجزائر و فرنسا و كيف عملت هذه الاخيرة على ابعاد كل القوى الاوروبية عن الجزائر و محاولة التقرب لوحدها من ايالة الجزائر .

الكلمات المفتاحية: الجزائر في العهد العثماني- الثورة الفرنسية- شارل فليب فاليير- مذكرات شارل فليب فاليير- جون انطوان فاليير- معاهدات السلام- الجزائر في 1781

Reading in Algerian-European Relations through Consul Charles Philippe Valier

Abstract : The relations between Algeria and France during the Ottoman era are the most important historical and diplomatic stations that Algeria has experienced during a prosperous and tumultuous

period. These relations received the attention of many of the trips and consuls who visited Algeria, and which attracted my attention is what the French Consul Charles Philippe Valbert mentioned, especially. As soon as it started to excel somewhat on the northern bank of the Mediterranean, it began to outperform the southern bank of it. The remarks of the French Consul, who represented his country in Algeria in 1791-1796, in his memoirs of Algeria in 1781 - L'Algerie en 1781 - achieved by Lucien Chaillou through his collection of documents of the French consul who was astonished at the information left by the consul on the Algerian-European relations, in general through the war and peace between Algeria and these countries according to each historical period passed during the Ottoman era, where he mentioned the power of Algeria at the time. They sought to conclude agreements and peace treaties for fear of the Algeria anger. These countries included England, Sweden and the Republic of Venice ... to the holding of peace treaties so as to establish more and more close relations with Algeria. On the other hand, through the memoirs of Philippe Valleier, the Algerian-French relations witnessed a period of peace and rapprochement during the Ottoman era, in which peace, rapprochement, competition and war prevailed, given the differences in the interests of each country, especially after France's victories within Europe and must have a sovereign position in the Mediterranean. The French consul Valier described all what happened between Algeria and France and how the latter worked to distance all the European powers from Algeria and to try to get closer to Algeria alone.

Key words: Algeria during the Ottoman era- The French Revolution- Charles Philippe Valleier- Memoirs of Philippe Valleier- John Antoine Valleier- Treaties of Peace- Algeria in 1781

المقدمة

يكتسي طرح موضوع العلاقات الجزائرية الأوروبية خلال العهد العثماني للبحث التاريخي الأكاديمي أهمية قصوى تاريخيا ودبلوماسيا واستراتيجيا ، لما له من بعد في الماضي والحاضر وحتى المستقبل ، وبحكم هذه الأهمية فإنّ حكام الجزائر طوال الفترة العثمانية واجهوا أحداثا سياسية داخلية وخارجية مرتبطة بهذه المسألة.

لقد تكالبت الدول الأوروبية ضد الجزائر وبخاصة في الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وقادت حملات عسكرية ضخمة ، كما عملت الكنيسة على مباركة هذه الحملات في إطار تجدد النزعة الصليبية ، وبفضل فعالية التنظيم الدبلوماسي

لإيالة الجزائر تمكنت من إبرام عدّة اتفاقيات ومعاهدات مع الدول الأوروبية عامّة وفرنسا خاصة.

إنّ الفترة العثمانية لم تلق العناية الكافية من الباحثين الجزائريين ، فبقي الجانب الدبلوماسي مرتبطا برؤية الطرف الفرنسي المعادي للجزائر ، الذي كان الغرض الأساسي منها الوصول بالقارئ إلى فكرة مردها أنّ الفترة العثمانية ليس فيها ما يكسب الجزائر شخصية وطنية وكيانا سياسيا ، ونظاما اقتصاديا ، وأطرا دفاعية ، فالكتاب الفرنسيون وغيرهم يركزون فقط ، على ما وصفوه بالقرصنة وتجارة الرقيق.

يهدف هذا العمل إلى إبراز ملامح طبيعة وواقع تطور العلاقات الجزائرية الأوروبية خلال العهد العثماني (1518-1830م) من خلال ملاحظات وشهادات الرحالة الأجانب الذين زاروا الجزائر خلال هذه المرحلة ، ودونوا معلوماتهم في كتب ومذكرات وتقارير خاصة ، في مقدمتهم: "**شارل فيليب فالبير**":

- **ما هي آثار هذه العلاقات اجتماعيا واقتصاديا ورغم ما يطرحه الموضوع من صعوبات مرتبطة أساسا بندرة الأرشيف الجزائري وسيطرة التقارير الفرنسية مما يعرقل الدارس، ويبعده عن الموضوعية في الكشف عن الحقيقة التاريخية، فإنّني أصبو من خلال ربط الموضوع بكتب الرحلات ورحلة شارل فيليب فالبير خاصة الاقتراب نحو المساهمة في التعريف بالتطور الحقيقي للعلاقات الجزائرية الأوروبية.**

العلاقات الجزائرية الأوروبية على ضوء ملاحظات شارل فيليب فالبير

أمام اختلال التوازن بين الغرب المسيحي و الشرق الإسلامي و تفوق القوى الإيبيرية وتراجع قوى المغرب العربي مع بداية القرن 15م. حيث تكالبت إسبانيا والبرتغال ضد الإسلام والمسلمين في حرب صليبية مدعمة بدعاية وسند مادي للكنيسة ، عن طريق شن غارات اتسمت بالتوحش والشراسة ، وأمام سلبية المقاومة الرسمية للدولة الزيانية ، كان الفضل للقوة الإسلامية العثمانية التي ستدخل في إطار عاطفة دينية لتوحيد الخلافة الإسلامية لإنقاذ المغرب الإسلامي من هذا الغزو الوحشي ، وتلبية دعوات السكان المحليين لمساعدتهم على صد العدوان الصليبي وحماية الثغور وتحريرها ، وإقامة حكم إسلامي جديد في إطار إحياء الخلافة الإسلامية.

ويمكن تلخيص ظروف وعوامل هذا التوسع العثماني في نقاط و تتمثل في ظاهرة القرصنة.

يختلف مفهوم القرصنة باختلاف مفاهيم وتيارات الدول السياسية ، فهي نوع من الحروب البحرية ما بين الدول المتعادية مقننة بتنظيم وتقاليد تميزها عن حركة السلب والنهب وقطع الطريق واللصوصية (Piraterie) فهي عبارة عن سفن مسلحة تعمل باسم

حكومة دولة ما ، مكلفة بمهام ضد سفن وسواحل أعداء مقصودين بالذات ، فهي بمثابة حرب مشروعة تتم بواسطة بيان صريح للحرب [1] ، وكانت القرصنة والنشاط الاقتصادي مترابطين ، وهي ظاهرة استيطان للبحر المتوسط خاصة ، باركتها كل الدول لتحقيق الازدهار والتقدم ورد الاعتداء ، ومثلت بالنسبة للمسلمين شكلا من أشكال الجهاد في البحر [(2)] وتطورت ظاهرة التسابق البحري [(3)] لحماية الموانئ والسيطرة على البحر المتوسط وأصبحت نشاطا عاما مارسته كل الموانئ[(4)] وتحولت القرصنة إلى أكبر وأهم مورد للموانئ في المغرب الأوسط حيث أكد المؤرخ الفرنسي "شارل أندري جوليان :

«سلحت بجاية ومدينة الجزائر ووهران ، وهنين ، كل لحسابها سفنا شراعية تجوب البحر المتوسط » [(5)]. لقد تنوعت علاقات الجزائر الخارجية ببعديها التكاملي التعاوني في إطار الخلافة الإسلامية والتوازن الدفاعي إزاء الدول البحرية الكبرى في العالم ، يهمنا منها تطور العلاقات الجزائرية الأوروبية خلال العهد العثماني.

انطلاقا من مذكرات شارل فيليب فالبير "الجزائر في 1781م" « L'Algérie en 1781 » ، والذي حققه لوسيان شايو Lucien Chaillou [6] ، والذي جمع وثائق خاصة حول القنصل الفرنسي شارل فيليب فالبير ، لقد تحصل الكاتب على هذه المعلومات والتي ليست موجودة في أرشيف الجزائر ، وقد اندهش بالأسلوب الرائع الذي خلفه القنصل وبثراء معلوماته الذي وصف بها الجزائر ، في فترة حكمه وفي قبل ذلك والذي كان يحتاج الى بعض معاونيه في القنصلية ، هذه المذكرات الخاصة بالجزائر والتي تعود إلى 1781م والتي أهداها القنصل الفرنسي إلى السيد كاستري Castries ، وزير الحرب آنذاك [7] ، لقد حقق الكاتب Lucien هذه المذكرات بالتعاون مع السيد بيار جيرال pierre Giral أستاذ لمعهد الآداب باكس بروفانس Aix en Provence والسيد بيار بوير pierre Boyer المكلّف بالأرشيف ، استطعت أن أحقق وهذه الأعمال الخاصرة بمذكرات القنصل الفرنسي. إنّ الوثائق التي جمعها المحقق سوف تمد الباحثين والمؤرخين مصادر معلوماتية جديدة حول حقبة من تاريخ الجزائر في العهد العثماني لتي كانت نوعا ما منسية وصعبة الدراسة.

: **الجزائر والسلام الأوربي:**

تتسابق كل القوات الأوربية كي تتحصل على السلام مع إيالة الجزائر ، وذلك لأن هذا السلام يكلفها تضحيات خفيفة مقارنة بالواقع في الحرب ، حيث تتلقى عراقيل بسبب التجارة التي تحدثها أثناء السفر في البحر ، وذلك التصرفات اللاانسانية التي يتعرض لها المساجين [8] .

إن دوافع حقيقية بالدول الأوربية للحفاظ على السلام مع الإيالة ، إن بعض القوى الأوربية ومنها الدنمرك وجمهورية البندقية وهولندا كانت تسعى دائما لتهين علاقاتها مع

الجزائر لأنها كانت تدفع الهدايا والإتاوات كل سنة ، وكان البحارة الجزائريون يستغلون أوضاع هذه الدول حتى يتحصلون على المزيد من هذه الهدايا.

إن السلام المشرف مع الجزائر تحصلت عليه دولتان أوربيتان فقط وهما فرنسا وانجلترا ، لكن رغم ذلك تتعرض هذه الدول إلى القرصنة من طرف الجزائريين في بعض الأحيان رغم الاتفاقيات والمعاهدات المبرمة مع الإيالة.

إن حالة السلم التي تتم في العلاقات بين الجزائر والدول الأوربية ليست دائمة حيث تتوقف على حالات والظروف تقلباتهم ، فرنسا وانجلترا بفضل حنكتهما من الحصول على هذا المبدأ فهما دائما يراعيان مصلحتهما الشخصية ، وفي المقابل فإن الجزائر كانت ترى بعقد السلم مع الدول الأوربية وخاصة فرنسا وبريطانيا إنها فترة تتجمد فيها مداخلها من عملية القرصنة التي تعدّ المداخل الرئيسية للخزينة الجزائرية.

كانت الدول الأوربية دائما تنص لعقد السلم مع الإيالة وذلك نظرهم أن الحرب معها يكون دائما وصفا كارثيا عليهم ، الحكومة الجزائرية لها معاهدات سلام على كل من فرنسا ، انجلترا والدنمرك والسويد وجمهورية البندقية وهولندا ، ان علاقات الجزائر مع هذه الدول سيكون لها فقرة خاصة بكل واحدة منهم حول وضعهم السلمي مع الجزائر ، لكن هناك أمور أخرى تقلب هذا الوضع ، وتغير في حالة حدوث اضطراب أو حرب مثل ما حدث في 1776م [9] وغير من معاملة الجزائر اتجاه الدول الأجنبية.

سنتطرق إلى علاقات الجزائر مع الدول الأوربية المذكورة لكن نركز على علاقتها مع فرنسا.

انجلترا والدنمرك والسلام مع الجزائر:

يعتبر الجزائريون الأصدقاء الحقيقيون للإنجليز ، وفي مصلحتهم احترام هذه الصداقة والحفاظ عليها [10] ، وقد وضعوا كل أمانيهم للحفاظ على العلاقة الحسنة بينهم ، لأن خسارة مضيق جبل طارق معناه علق المحيط ، وتنزع منهم الأماكن الجغرافية المهمة.

يعرف الانجليز كيف يأخذون حذرهم ، ويحافظون على اتفاقياتهم مع الجزائر ، لكن في المقابل يتفوقون كثير في تقلبات الجزائريين إن المعاهدات التي أبرمت بين انجلترا والجزائر هي شريفة مقارنة بالمعاهدات التي وقعت بين الإيالة والدول الأوربية وحتى مع فرنسا ، وأن القناصل الانجليز الذين مثلوا بلادهم من داخل الإيالة كانوا دائما يعملون جاهدين بأن تكون صورة العلاقة بين الطرفين حسنة ولا تتخللها أي مشاكل رغم الاضطرابات التي شهدتها منطقة البحر المتوسط ، والصراع الدائم بين انجلترا وفرنسا لكي يتحصلوا على امتيازات داخل الجزائر ومحاولة تحسين علاقتهم معها باستعمال كل الطرق.

إن السلام المبرم بين الجزائر والدنمرك يحيط دائما بركائز ضعيفة ومضطربة وبقاء دوام هذا السلام يعود إلى الدور الكبير الذي يلعبه القناصل الدانمركيين الذين مثلوا بلادهم داخل الإيالة خلال فترة الحكم العثماني ، والرجل الدنمركي بحنكته ومهارته وبتجاربه العديدة والتي لا تعطيه سوى الموت والهلاك تبيّن له أنه يعمل بكل استطاعته حتى يكسب ود الجزائريين.

لكن هذا السلام يكون محفوفا بالمخاطر ، لأن له قاعدة هشة ، الجزائريون الذين يضمنون أنّهم يهابون الدانمركيين إن ينقضوا أي معاهدة بينهم ، فالسلام بالنسبة لهم يساوي هدّ الحرب [11] كل سنة يقوم الملك الدانمركي بإرسال كمية معتبرة من الرصاص ، واللوحات والقطران ، وكل السفن التي كلها هي مبعوثة بكل ثقة ، ويمكن مراقبة ذلك بعمليات عديدة ، وإن أي خطأ في الحجم سوف يجبر على تغير الموانئ التي سترسل إليها ، وأن القنصل الدانمركي يكون مجبرا على مراقبة هذه الحمولات وحريصا على أن تصل تلك الصنائع إلى الحكومة الجزائرية حتى يضمن سلام وود الجزائريين ، لكن فرنسا تبقى فرنسا وانجلترا أكثر الدول كسبا لود الجزائريين مقارنة بالأمم الأخرى.

الجزائر ومملكة السويد وحكومة هولندا:

دائما وحسب ما جاء في مذكرات شارل فيليب فالبير القنصل الفرنسي ، فإن العلاقات بين الجزائر ومملكة السويد تسعى دائما لكي تكون حسنة ، وان المعاهدات التي تبرم وتعقد بين الطرفين تكون تحت رعاية الملك السويدي الأكبر وتحت ضمانه[12] .

وإن هذا السلام بالنسبة للسويديين يعتبر انجازا كبير تحققه المملكة مقارنة مع الجارة الدانمرك ، فالمملكات تعين قنصلها في الجزائر كل عامين ، يعمل من أجل إرساء قواعد التعاون بين البلدين ، وبالتالي توطيد العلاقات بينهما وجعل السلام هو الذي يرفرف فوق سماء البلدين.

إنّ الجزائر لا تولي اهتماما كبيرا للمعاهدات والاتفاقيات المبرمة مع السويد ، لأنها غير مهمة بالنسبة لهم مقارنة مع الجمهوريات الدول الكبرى التي لها نفوذ واسع خاصة فرنسا وانجلترا ، هذه علاقة الجزائر بمهمة السويد ، أمّا علاقاتها بحكومة هولندا فهي كذلك حسنة وتسعى الأخيرة بأن تتحسن هذه العلاقة حتى يكون لها مكانة لدى الإيالة تمثل بقية الدول ، فشروط السلام بين الجزائر وهولندا شبيهة بتلك التي حققت مع دانمرك ، تزداد العلاقة بين طرفين في التحسن لأن الهولنديين يعملون جاهدين بكسب ود الجزائريين [13] ، وان القنصل الهولندي يعمل جاهدا من أجل إبقاء الصلة والعلاقة مع الجزائر في أحسن ما يرام ، إن معاملة الهولنديين تختلف بنظيراتها مع الدانمركيين ، فالجزائر كانت تحتقر الدانمرك وتعاملها حسب مستواها.

الجزائر وجمهورية البندقية:

اتسمت العلاقات الجزائر مع جمهورية البندقية بالود والتوتر مثل بقية الدول ، لكن

يظهر في الوهلة الأولى إن السلام بين الجزائر وهذه الجمهورية أكثر هشاشة ، لكنه في العمق هو الأكثر عقلانية واقعية ، كانت الضريبة الوحيدة المفروضة على البندقية التي تقدر ب 100 ألف فرنك نقدا أقل بكثر كالتي تدفع من طرف الدول الأوربية الأخرى خاصة الدانمرك وهولندا[14] .

رغم قلة هذا المبلغ مقارنة بمبالغ المدفوعة من طرف الدول الأخرى إلا أنها كانت تستعمل في شراء الأسلحة والذخائر لتسهيل عملية القرصنة وبالتالي قتل وذبح الشعوب المسيحية وإهانة كل أفراد أوربا.

كانت البندقية أكثر أهمية بالنسبة للجزائر على غيرها في القوى الأخرى ، حيث فهي تولي اهتماما كبيرا للسلام مع الجمهورية ، وكل دايات الجزائر حرصوا على إبقاء السلام معها ، ولم يفكروا يوما في قطع العلاقات بين الطرفين ، لم يحب الجزائر فكرة الحرب مع البندقية.

إن حكام الدولة لم يريدوا أسر المسلمين حتى لا تتضرر لاسيما عندما تكون في حرب مع كورسيكا ، هذا ما كان يستهويه الجزائريون إن العدد الكبير من السفن التي كانت ترسل من طرف البندقية تتعرض إلى الأذى خاصة في فترة القطيعة بين الدولتين ، لكن سرعان ما تعود العلاقات إلى الأحسن بينهما ، وذلك بفضل نشاط قنصل الحكومة الذي كان يسعى دائما لإبقاء السلام الدائم مع إيالة الجزائر.

هو لم يكن للأمم غير السلام مع الجزائر ، ولم يكن لها خيار آخر غير ذلك باستثناء فرنسا وبريطانيا حيث كانت تعمل لتأمين أساطيلها في البحر لم تكن لديهم أي تجارة في حالة التوتر مع الجزائر ، كل دول العالم كانت تريد السلام الدائم لتحسين علاقتها مع الجزائر وبالتالي ضمان رواج تجارتها ، وكل دولة كانت لها شروط سلام مع الجزائر في المقابل فكل هذه الدول اجتمعت للضغط عليها ولما لا إلحاق الضرر بها ، رغم ذلك كانت الجزائر قوية ولم تكن تولي اهتماما كبيرا لأي قوة.

لعب القناصل المعتمدون بالجزائر دور كبير في إرساء السلام خدمة لمصالحهم [15]
، كان الداي وكبار موظفي الدولة يتمتعون بكل الهدايا التي كانت الدول تقدمها ، لكن فيما بعد استغلت تلك الدول حسن مقابلة الجزائريين وتطورت إمكانياتها ، وأصبحت قوية.

إن الأمم التي كانت في صراع مع الجزائر والتي قدمت الأسلحة كهدايا تيقنت أن تلك الهدايا ستكون يوما ضدها ، ولا سلام مع قطاع الطرق ، وإنما الحرب هو السبيل الوحيد ضدهم الإيالة.

كان الضباط والمبعوثين من مختلف الأمم التي تربطها سلام مع الإيالة يعاملون بنفس الطريقة ، دون النظر إلى أهمية دولة أو أخرى ، رغم الاختلافات والمناوشات التي وقعت بين قنصل فرنسا مع نظيره الإنجليزي ، نفس الشيء حدث مع قنصل الدانمرك والسويد ، وقنصل البندقية مع نظيره الهولندي.

كل الأمم التي كانت في سلام مع الجزائر كان لديها قناصل يعملون للحفاظ على هذا السلام ، وإبرام اتفاقيات ومعاهدات للدفاع عن مصالحها الاقتصادية والسياسية ، حيث كانت لهم الحرية المطلقة في بلدانهم لإبرام علاقات مختلفة لتعزيز مكانة أوطانهم من بينهم نجد القنصل الدانمركي بلويار *Ployard* الذي كان يحرص أن تكون له علاقة جيدة مع حكام الجزائر ، رغم حالة التذبذب في العلاقة بين البلدين [16] ، لكتن الدور الذي لعبه القنصل الدانمركي جعل من السلام هو الطريق لتحقيق أهداف كثيرة ، لكن في الكثير من الأحيان كانت تلغى تلك المعاهدات بمجرد مغادرة القنصل وتعيين آخر مكانه.

كان كل القناصل الموجودون داخل البلاد يمثلون سياسيا واجتماعيا درجة الغنى والفقر التي كانت عليها دولتهم ، وكانت نفقاتهم حسب مداخيلهم [17] ، وعلى العموم كانت لهم منازل جميلة وبها ثأثيت جيّد ، وكان لهم منازل أخرى في الريف يقصدونها عندما يشتد حر الصيف.

الأوربيون والحرب مع الجزائر:

كانت الجزائر تعلن الحرب ضد كل دولة لم تبرم معها معاهدات ، وفي مقدمتها إسبانيا العدو الأكبر للجزائريين ، وبحكم قربها من السواحل الجزائرية أصبحت خطرا على الحكام داخل الإيالة ، ولم يكونوا يخشون الأمم الضعيفة ، فروسيا التي لم تكن لها تجارة في البحر المتوسط لم تهتم بأي محاولة معادية ضد المصالح الجزائرية في المتوسط ، كانت البرتغال ضعيفة في المنطقة وهي منشغلة بالتجارة مع الهند ، أمّا إمبراطور بروسيا فليس له القوة الكافية لأي مواجهة وفقا لقانون الدول الأوربية.

وبعد سقوط جبل طارق في يد الإنجليز وقعت تغيرات كبيرة في النظام ، فبدا إلى الجزائر وهي تغيّر في سياستها خاصة تجاه إسبانيا ، مملكة نابولي والبرتغال ، من جانبها أصبحت روسيا تقيم علاقات تجارية في المتوسط ، قامت كل المجهودات لتأمين تجارتها أمام الجزائر [18] .

فالجزائر في سلمها مع الدول الأوربية أصبح لها العديد من المكتسبات ، خاصة مع إسبانيا الذي تطلب انتظار عدة سنوات لتقيم ذلك الوفاق ، عملت الإيالة على تحسين علاقاتها تارة مع الأمم الأوربية وأخرى كانت تعمل على عدائها ، كانت تعامل الدول حسب

مكانتها باستثناء فرنسا وانجلترا، فكل الدول الأخرى في صف واحد نظرا لضعف أهميتها ومطالب الجزائريين المتزايدة.

علاقات الجزائر بفرنسا من خلال نظرة القنصل فاليير:

تعتبر فرنسا من بين الدول التي لها علاقات مع الجزائر، رغم أنها لم تستقر خلال معاملتها مع الإيالة، كانت الأقرب من بقية الأمم إلى الحكومة الجزائرية، ففرنسا بقوتها استطاعت أن تتحصل على ودّ الجزائريين، لكن في المقابل كانت دائما متخوفة في حالات الاضطراب في العلاقات، وكانت تستعمل الحكمة في معاملاتها بشكل جيد اتجاه الجزائريين، تضع صورة رائعة وحسن النية في علاقاتها.

عملت فرنسا على تثبيت علاقاتها حتى تحافظ على مكانتها وهذا ما كانت تحتاج إليه، ولا تريد أبد الخراب التي يمكن أن يلحق بها[19] ويجعلها غريبة الأطوار ووقحة ومتشدّدة.

إن الانتصارات التي حققتها انجلترا في حربها [20]، جعلت الفرنسيين يكنون لهم الحقد خوفا من تقربهم من الجزائر وبالتالي يفقدون مكانتهم داخل البلاد.

فالصراع الفرنسي الإنجليزي أدى بالجزائر إلى تعزيز مكانتها في حوض البحر المتوسط، حيث أن الفرنسيين الموجودين داخل الإيالة عملوا بكل جدية للتقرب من الجزائريين، حيث يحافظوا على مكانتهم التي وصلوا إليها من خلال إبرام عدّة معاهدات بين الطرفين.

إن الانتصارات التي حققها آل بوربون أنقص دور الانجليز داخل البحر المتوسط حيث تعد لهم أي منفذ، وحتى أسطولهم لم تكن له القدرة لدخول في البحر بكل حرية وفرح [21].

إن هذه الانتصارات جعلت من فرنسا قوة كبيرة داخل أوربا وبفضلها عززت مكانتها، وتخلصت من منافستها انجلترا في البحر، فالجزائر كانت تتقرب من الأمم التي لها مصلحتها معها، ولو يبق إلاّ فرنسا في الساحة التي يمكن أن تكون قريبة جدا من قلوب الجزائريين، ومنفعتها لا تكون إلا مع إيالة الجزائر، وبهذا ضمنت فرنسا صداقتها مع الجزائر لكي تصبح الأكثر ثقة بالنسبة للحكام في داخل البلاد، وعملت بكل ما في وسعها لكي تنتصر على الإنجليز ونزع منهم مضيق جبل طارق الاستراتيجي، وبعدها يمكن الانتصار على الجزائريين أنفسهم، لكنهم كانوا يرون أن الاقتراح الأول هو الانتصار على الإنجليز هو الأنسب ثم تأتي بعدها الاهتمام بالجزائر.

كل ما يسعدني هو أنني أرى بلدي فرنسا تسيطر على الدول في العالم بما فيها حوض البحر المتوسط، وقد بدأ ذلك بإبرام معاهدات سلام مع الحكومة الجزائرية الذي دام مدة طويلة [22].

وكانت هذه المعاهدة كلّها نصر لفرنسا والشروط نفسها تخدمها كثيرا ، وهي التي كان يجب على الملوك الفرنسيين فرضها والتشبث بها خدمة كبيرة لفرنسا.

إن القناصل الأوربيين المهتمين بالجزائر مجبرون على تقديم الهدايا للحكومة حتى تكون مكانتهم كبيرة لدى حكام الإيالة ، فمعاملتهم تتمثل في تقديم الهدايا والاقتراب من قلوب الجزائريين وكسب ودهم ، فكانوا يحترمون هذه الفريضة اتجاه الجزائريين.

يدفع القنصل الفرنسي كذلك الهدايا مثل بقية قناصل لكنها تكون أقل من نظيراتها الأوربية [23] وهذا تفضل الفرنسيين عن نظراءهم داخل البلاد ومهمتهم تكون أصعب.

فالشعوب الأخرى مجبرة على دفع الإتاوات والهدايا ، بحكم قرب فرنسا في البحر مع إيالة الجزائر ، كان الشعب الفرنسي الأقرب في التعامل مع الحكومة وذلك بحكم صفة الجار ، حيث نشطوا التجارة في البحر المتوسط ، وكان الممثل الفرنسي في الجزائر يقوم بعمل جبّار في أجل كسب ثقة الحكام فيها.

الجزائر بحكم القرابة مع فرنسا من خلال إبرام العديد من المعاهدات بينهما منحت لها امتيازات جدّ مهمة ما لم تستطيع أي أمة أخرى الحصول عليها ، رغم العمل الجبّار التي قامت به بعض الدول المسيحية في بعض الأحيان كانت الإيالة تغضب الحكومة الفرنسية نظرا لبعض التجاوزات التي كان يقوم بها قناصلها ، لكن في المقابل كانوا دائما يعملون بكل ما في وسعهم لتجنب قيام حرب بين الشعبين الصديقين.

غير أن الجزائر في كثير من أحيان كادت أن تشعل الحرب مع طرف آخر ، فحكومة الإيالة غير متخوفة ، فهي في موقف قوة وأي أمة لن تهزمها وباستطاعتها فعل أي شيء ضد أي دولة.

فالسلام الدائم كان بين الحكومات الإسلامية والجزائر بحكم الصلة الموجودة بينهما ، أمّا بقية الأمم المسيحية فهي في حالة استنفار قصوى ، فخالات الحرب مثل حالات السلم تتعاقب وتسيطر على العلاقات الجزائرية والدول الأوربية ، نفس الأمر يمكن قوله على فرنسا وصراعها الدائم مع الجزائر من أجل تثبيت سلمها وبالتالي الاستفادة من خلال تنفيذ مشاريعها ومصالحها.

إن الامتيازات الدينية التي تحصلت عليها فرنسا ، يشير إليها القنصل فالبير بأنها مؤسسات صالحة للدين في بلاد غير محافظ ، فهذه الامتيازات ستتطور إلى مطالب أخرى خاصة اقتصادية كانت الكنيسة لتجمعهم ، حيث كان العبيد وغيرهم يقصدونها كل يوم أحد للاحتفال بآخر الأسبوع وذلك قبل عودتهم إلى العمل [24] .تمكنت فرنسا من توطيد معالمها

داخل الإيالة وكانت الجزائر تعاملها حسب الاتفاقيات بينهما ، واحترام بنود المعاهدات رغم حالات التردد من طرف الفرنسي في بعض الأحيان.

الخاتمة:

من خلال هذا العرض حول تطور العلاقات الجزائرية الأوروبية خلال العهد العثماني (1519-1830م)، وأهم الملاحظات التي أثارت انتباه واهتمام الرحالة الأوروبيين والأمريكيين ، وخاصة القنصل الفرنسي " **شارل فيليب فالبير** " في مذكراته ، نستخلص ما يلي:

بدأت العلاقات الجزائرية الأوروبية متأثرة بالعلاقة العثمانية الفرنسية و بقية الدول الأوروبية التي فتحت عهد الامتيازات خلال القرن السادس عشر الميلادي ، حيث لعب " **خير الدين باشا**" مؤسس الإيالة الجزائرية دور الوساطة بين السلطان العثماني " **سليمان القانوني** " والإمبراطور الفرنسي " **فرانسوا الأول** " انعكست إيجابا على تطور العلاقات الجزائرية الأوروبية.

رغم غلبة الطابع السلمي على العلاقات الجزائرية الأوروبية خلال العهد العثماني ، فإنها لم تعرف استقرارا وشهدت عدة اضطرابات ساهمت في توتر هذه العلاقات وتطورها ،

وكان للرحالة الذين مروا على الجزائر دور كبير في توضيح ملامح العلاقات الجزائرية الأوروبية ، منهم على سبيل المثال الرحالة الإسبان وخصوصا ما دونه " **تيدنا** " في هذا الموضوع ، حيث وصفها بالتذبذب.

كما أثارت انتباه الرحالة الفرنسيين ، نخص بالذكر:

- " **أندري ألكسندر لومير** " الذي تقرب من الجزائريين ، وحرص على إبقاء العلاقة الفرنسية الجزائرية جيدة خدمة لمصالح بلده ، حيث حاول إبعاد الإنجليز عن الجزائر حتى لا ينافسونهم داخل الإيالة.

- " **جون أنطوان فالبير** " الذي مثل بلاده كقنصل في إيالة الجزائر ، حيث ساهم في توطيد العلاقة بين البلدين ، رغم الأحداث التي هزت استقرار العلاقات بين البلدين.

- واهتم الرحالة الألمان من جهتهم بالعلاقات الجزائرية الأوروبية أشهرهم:

- "**بفايفر**" الذي دون مذكراته حول العلاقات بين الجزائر وأوروبا عامة و فرنسا خاصة والتي سبقت الاحتلال ، وأرخ لأهم الأحداث التي أثرت فيها ، حيث عاش بعضها وسمع عن الآخر ، فالفترة التي عاش بها في الجزائر كانت صعبة وشهدت اضطرابا وتوترا في العلاقات.

- "**شونينبرغ**" الذي تطرق إلى تطور العلاقات الجزائرية الأوروبية ، حتى مرحلة القطيعة ، وركز أكثر على وصف الغزو الفرنسي للجزائر.

وساهم الرحالة الأمريكيون في توضيح تطور العلاقات الجزائرية الأوروبية ، نذكر خاصة:

- "**وليام شالر**" الذي أضاف لتطور العلاقات الجزائرية الأمريكية أهم ملامح العلاقات الجزائرية الفرنسية ، فوصفها بالود رغم بعض ملامح التوترات التي هدد تها.

- " **كاتكارت**" الذي يصف العلاقات الجزائرية الأوروبية عامة والفرنسية خاصة ، حيث رأى أن فرنسا كانت تعمل على خدمة مصالحها في الجزائر.

ويبقى أشهر هؤلاء الرحالة الأوربيين والأمريكيين الذين أولوا اهتماما بالغا لتطور العلاقات الجزائرية الأوروبية هو الرحالة الفرنسي: القنصل "**شارل فيليب فالبير**" الذي ذكر في مذكراته أحوال الجزائر عامة ، حيث تطرق إلى حياة السكان دون أن ينسى وصفا كاملا للمدينة ، كما ركز على سير العلاقات بين بلده فرنسا و الأوربيين مع إيالة الجزائر ، والتي لم تكن مستقرة خاصة في فترة تواجده بها ، حيث كان حريصا على تحسين صورة بلده عند الجزائريين ، ورغم ذلك أرغم على إنهاء مهامه في مدة لم تتجاوز خمس سنوات بطلب من حكومة فرنسا.

إذن يتبين أن موضوع العلاقات الجزائرية الأوروبية خلال العهد العثماني حاسم في تطور تاريخ البلدين ، كما وضحها الرحالة والقناصل ، ونستنتج من خلالها مجموعة من الحقائق أهمها:

كانت فرنسا الدولة الأوروبية الأولى التي نجحت في ربط علاقات متنوعة مع إيالة الجزائر.

غلبت علاقات السلم والتعاون والتبادل التجاري بين البلدين قبل نهاية حروب نابليون.

أثرت العلاقات الأوروبية العثمانية خاصة فرنسا التي تحصلت على أهدافها المصلحية في معاهدة 1535م على تطور العلاقات الجزائرية العثمانية ، حيث ظلت فرنسا تعتبر الدولة العثمانية وصية شرعية على إيالة الجزائر ، وتطالب بتدخلها في كل ما يتعرض إلى تطور هذه العلاقات.

ظلت سياسة حكام إيالة الجزائر تقوم على مبدأ التصدي والمواجهة وتحدي سياسة الهيمنة التي مارستها الدول الأوروبية والأمريكية.

رغم الاهتمام القليل نسبيا للرحالة الأوروبيين والأمريكيين بدراسة تطور العلاقات الجزائرية الأوروبية مقارنة مع اهتمامهم بوصف أحوال السكان والأسواق والتجارة ، إلا أن ملاحظاتهم في تحليل وتفسير تطور هذه العلاقات تفيد كثيرا في استقصاء مجموعة من الحقائق أهمها:

الضعف الدبلوماسي لحكام إيالة الجزائر ، حيث اتهموهم بمختلف الأوصاف.

تحميل حكام إيالة الجزائر مسؤولية تذبذب وتدهور العلاقات الجزائرية الأوروبية عامة و الفرنسية حاصة على أساس عدم احترام تعهداتهم وتمسكهم بأعمال القرصنة بمفهوم اللصوصية وتجارة الرقيق.

لم يكن حكام الجزائر يسمعون للأوامر التي تأتيهم من الأستانة ، وإنما كانوا يصغون أكثر إلى ضباط بحريتهم.

تمسكت الجزائر العثمانية في علاقاتها مع دول أوربا بصداقتها القديمة ، حيث آمنت بمبدأ الصداقة إما أن تكون كاملة أو لا تكون.

الهوامش:

[1] Braudel(Fernand), la Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philipe II, 2Vol ; Paris 1966, pp191-195

[(2)] Belhamissi (Moulay), Marins et Marines d'Alger (1518-1830), Bibliothèque nationale d'Algérie, 1996, 3T

[(3)] يحيى ، جلال ، المغرب الكبير ، ج3 – العصر الحديث وهجوم الاستعمار-، دار النهضة العربية ، بيروت1981 ، ص ص: 17-21

[(4)] Braudel (Fernand), Les Espagnols et l'Afrique du nord (1492-1577), in Revue Africaine, N° 69/1928

[(5)] شارل أندري ، جوليان ، تاريخ شمال إفريقيا ، ترجمة مزالي وآخرون ، الدار التونسية ، تونس 1983 ، ص: 322

[6] Lucien CHAILLOU, L'Algérie en 1781, Mémoire du Consul C.Ph. Vallière, Imprémerie Nouvelle-TOULON, 1974, p.V.

[7] القنصليات الفرنسية الموجودة في بلاد المغرب ينتمون إلى فصيلة البحرية.

[8] Chaillou, Lucien, op.cit, p : 26.

[9] ثورة الاستقلال للولايات المتحدة الأمريكية عن فالبير ، ص: 46.

[10] كان الجزائريون يحافظون على صداقتهم مع الانجليز خوفا من رؤية جبل طارق بين أيدي الإسبان ، عن فالبير ، ص: 49.

[11] Lucien Chaillou, OP cit, p : 50.

[12] Ibid , p : 50.

[13] تعمل هولندا على رضى الجزائريين ، كل سنة تحدد الجزائر كمية ونوعية الأشياء التي يرغبون فيها من الهولنديين مذكرات شارل فيليب فالبير. ص51.

[14] Lucien chaillou, Op cit, p : 52.

[15] حسب فالبير ، كان القناصل يقومون بإعطاء الهدايا بداية كل مهمة من مفروشات ، وحلي ، ساعات ، أحجار الكريمة والأسلحة.

[16] اتسمت العلاقة بين الجزائر والدانمرك بالتذبذب ، حيث كانت في العديد من المرات تنقض المعاهدات خاصة في الجزائر.

[17] Lucien chaillou, OP cit, p: 54.

[18] Lucien chaillou, OP cit, p : 55.

[19] حسب فالبير ، فإن فرنسا عملت جاهدة حتى تحافظ على مكانتها المرموقة لدى الجزائريين.

[21] Lucien chaillou, op cit, p : 47.

[22] السلام بين الجزائر وفرنسا دامة مائة سنة وبدأ بتاريخ 24 سبتمبر 1689م.

[23] Chaillou Lucien, OP cit, p : 48.

[24] Chaillou Lucien, Op cit, p : 56.